

انفتاح الخطاب على التداولية

د. مسلم عائشة

جامعة سيدي بلعباس

المخلص:

لعلّ المدونة القرائية التي اعتمدتها الدراسات السردية نهاية القرن العشرين قد اتسعت كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك، فقد صارت تشمل أجناساً متعددة وصارت تطبق على نصوص غير أدبية كالنصوص الدينية والصحافية والسياسية، والتي لا تزال في تفاعل مثمر مع أبحاث لسانيات التلفظ والسميائيات وكذلك انفتاح الخطاب السردى على التداولية إذ أصبحت المدونة الروائية متعددة الأجناس فصارت تضم الشعر والحكم والوثائق وغيرها.

الكلمات المفتاحية: الانفتاح ، الخطاب ، التداولية

Abstract:

At the end of the twentieth century (XXth century), the reading blog adopted by narrative studies has possibly expanded noticeably from what it was earlier than that period; given that it comprised several genres. In addition, it was applied on religious, political and journalistic texts other than literary ones. The reading blog is still interacting positively with semantic and linguistic enunciation research besides the openness of narrative discourse on deliberation which makes the fiction blog become multi-genre including poetry, maxims, documents and so forth.

Keywords: Openness, discourse, deliberative

إن أهم ما أحدثته الدراسة التداولية للنصوص الأدبية هو اعتبارها كل نص خطاباً إذا ما نُظر إليه في علاقته بوضعية قوله، وقيامه وسيلة تواصل وتأثير، و«صار يقرأ النص مع مراعاة ظروف إنتاجه وفق المعادلة التالية: الخطاب = النص + ظروف الإنتاج»¹. أضحي الخطاب حاملاً لمعنى أوسع من كونه ملفوظاً وتلفظاً فانفتح مفهومه على تعدد القراءة. هناك من استبدل

مفهوم الخطاب بالنص اعتقاداً منه أن الخطاب يختلف عن النص، والحقيقة هي أن الخطاب هو النص وقد سمي بذلك لتمييزه بصفة التداولية أو الخطابية، وتحولت الدراسات السردية نحو مقاربة الخطاب الأدبي من ناحية متلقيه، ففي لسانيات التلفظ «إن الدراسة التداولية للمحكي لا تعني أبداً إهمال بعده التركيبى والدلالي، بل تعني عدم الاختصار على الكلام تستصغي منه البنى وتوصف فيه الأنظمة، وهي تعني الاهتمام بوظائفه أيضاً سواء تعلقت هذه الوظائف بالإحالة المرجعية أو بالوظيفة التداولية»²، وبهذا المفهوم يقع الانتقال في دراسة الظاهرة اللغوية من اعتبارها كياناً مغلقاً على نفسه، إلى اعتبارها كياناً منفتحاً على المقاصد الضمنية لمستعملي اللغة.

ازداد البعد التداولي للخطاب الأدبي ترسخاً وانفتاحاً، مع الدراسات التي اعتمدت مبدأ التأويلية منهجاً لمقاربة النص، ودراسة وجوه المعنى من خلال المضمرات على سبيل الاستدلال بالظاهر على المخفي في اللغة والسياق، وذلك نظراً لما تقوم عليه الظاهرة الأدبية من التلميح بدل التصريح، تنبعت الدراسات التداولية لإشكالية أن الدلالة ليست وليدة النصية فحسب (Textuality) وإنما هي مشروطة أيضاً بمقاييس كالتناص والتفاعل النصي والمدار -العناصر الغائبة الحاضرة- كما سماها تودوروف³ مرتكزات دلالية خطيرة، إذ تفتح النص على تعدد القراءة.

بحثت الدراسات البنيوية عن الوحدة داخل التنوع، فقد كان الوعي اللساني الحقيقي المتسم بالإيديولوجيا غائبا عن أنظار الباحثين، هذا التوجه نحو الوحدة، فرض عليهم عدم الاهتمام

بكافة الأنواع اللفظية الحاملة للتوجهات الهادفة إلى لامركزية الحياة اللغوية⁴، ومن منظور رافض لإيديولوجيا الفكر الأحادي التي كانت تكرسها الاتجاهات النقدية النقدية التقليدية، عمل باختين على تحويل البحث نحو دراسة اللغة، لكونها الأداة المشتركة بين جميع الإيديولوجيات، ونحو التركيز على سمة التعدد لأنها تفتح النص اللغوي عامة والنص الروائي بشكل خاص على العلاقات الاجتماعية والسياسية، التي تضمن مكانته داخل الحقل الثقافي.

جعل باختين مبدأ الحوارية شرطاً ملازماً لدراسة التعدد اللغوي « فالحوارية الداخلية للخطاب هي الشرط الحتمي لنا ضد اللغة والنتيجة الطبيعية للامتلاك الحاصل في المقاصد اللغوية المقدمة»⁵. تخضع اللغة بفضل التطور التاريخي للتداول الاجتماعي الذي يوصف بالتعدد والاختلاف، مما يستدعي خلق الحوار لتقريب المسافة بين مستعملي اللغة، « إذ يخضع التعدد اللغوي لتدبير أدبي، فالأصوات الاجتماعية والتاريخية التي تحيل إليها اللغة، والتي تمنحها دلالات ملموسة ومحددة تنتظم داخل الرواية في إطار نسق أسلوبى متناغم يترجم وضعية المؤلف السوسيو-إيديولوجية⁶، التجاور والتحاوُر الحاصل بين هذه اللغات يشكل نوعاً من التهجين، المتعلق باختلاف وجهات النظر، إذ « لا يتعلق الأمر بخليط من الأشكال والمؤشرات الخاصة بأسلوبين أو لغتين فحسب، ولكنه قبل كل شيء تصادم يحدث في قلب هذه الأشكال بين وجهات نظر حول العالم، لذلك لا يعتبر التهجين الأدبي المقصود تهجيناً مجرداً ومنطقياً، ولكنه تهجين ملموس واجتماعي»⁷، يمكن القول إجمالاً بأن

الحوارية كيفما كانت الإجراءات الموصلة إليها، وبوصفها المبدأ المنظم للتهجين الأدبي الناتج عن التعدد اللغوي هي أداة إيديولوجية تعمل على المواجهة بين وجهات نظر متعددة.

إدراج التلقي في تحليل الخطاب تجاوز واضح للدراسات السانكرونية المحايثة، ونقل لها إلى التداولية، تعود جوليا كريستيفا Julia Kristeva إلى تراث باختين النقدي ولاسيما كتابه " مبدأ الحوارية"، لتقدم منهاجاً جديداً في تناول النص الأدبي يتلاءم مع الدراسات التداولية " التي تتخطى البنية لتصفها وتعيد بناءها من جديد، لأن النص عند كريستيفا ليس نظاماً لغوياً منجزاً أو مقفلاً كما هو الشأن عند البنيويين وإنما هو عدسة مقعرة لمعان ودلالات متغيرة"⁸.

أحدثت التداولية نقلة نوعية للتحليل البنيوي للنصوص من المحايثة ومظهرية النص إلى تكوينيته التي تمثل أساساً للتطور المفهومي للبنية، كما أنها تمثل الجسر الذي يعبره القارئ في إغناء المقاربة الدلالية للنص وإعطائه أبعاداً سوسيولوجية وثقافية لكن انطلاقاً من البنى النصية. بناء على ما توصلت إلى تحقيقه السيميائية التداولية بزعامة كريستيفا وتصديقا لتصور دي سوسير في كتابه دروس في اللسانيات العامة " أنه ينبغي أن تضم السيميائيات العامة المفسرة لكل أشكال وتجليات الدلالة سيميائية العالم الطبيعي"⁹ قام أعمدة المدرسة الباريسية" غريماس، كورتيس، كوكي، راستي بتوسيع المنهجية السيميائية التي طالما دافعوا عن أسسها البنيوية المحايثة ونهجوا التداولية " التي أعادت الاهتمام إلى ذاتية اللغة وإلى منطق الجهات وأحوال النفس مما يدعى

سيمائية الأهواء¹⁰ فالنص مهما كانت درجة وضوحه يخفي خلفه مئات النصوص وكل قراءة له هي نص جديد حسب طاقة القارئ التخيلية لعلامات النص المقروء، ومن ثمة تكون السيمائية التداولية قد زوجت بين المحايثة النصية والتجلي الدلالي.

كشفت سيمائية جوليا كريستيفا عن تصور سيميائي خالص سعى إلى تجاوز المعطيات الألسنية التي اعتمدها بارث وغريماس وهامون وغيرهم، وجهدت إلى إيصال التحليل بمرجعيات النص، فالتحليل الدلالي برأيها لا يتمحور فقط حول استنتاج مدلول اللغة إنما يتكئ على معطيات مختلفة وبذلك تنشق السيمائية عند كريستيفا عن السيمائية البنيوية التي كانت أصلاً لتأخذ منحى تداولياً وتوضح ذلك بقولها: «الفارق بين سيميائتي وسيمائية رولان بارث، يكمن في عصب تدميري يشحن العلامات اللغوية مظهراً معناها الإيمائي والتغيرات السياقية»¹¹ الأمر الذي ساعد على انفتاح السيمائية في تحليل النصوص والعودة إلى المرجعيات التي أثرت في إنتاجها.

وتحدد كريستيفا ركيزتين لتحليل النص:

- 1- الملفوظات المنتظمة: كلاماً دلالياً.
- 2- التناص ويعني التفاعل النصي داخل النص الواحد.¹²

وقد استعارت هذا المصطلح من باخтин.

لقد سارت كريستيفا في نفس اتجاه باخтин في تناولها لمفهوم التناص الذي يأتي ضمن مقاربتها للبنية الخطابية للنص الروائي، إذ انطلقت من تأكيد باختين على العلاقات الحوارية بين المحاور اللغوية داخل النص الروائي لتؤسس مفهوم

الازدواج القيمي «إن الحوارية الباختيانية تعين الكتابة بوصفها ذاتية وتواصلية في ذات الوقت، أو بتعبير آخر بوصفها تناصاً»¹³. يعتبر مفهوم الازدواج القيمي نتيجة طبيعية لحالة التناص التي يختزلها في التفاعل الحاصل بين الجانب المونولوجي من جهة النص والجانب الحوارية «ففضاء الازدواج القيمي داخل الرواية ينتظم وفق مبدأين للتشكيل، المبدأ المونولوجي (حيث تكون كل متوالية محددة بالمتوالية السابقة) والمبدأ الحوارية (حيث تعد المتواليات غير النهائية مضافة مباشرة إلى السلسلة السببية السابقة»¹⁴.

تقترح كريستيفا التحويل كأداة إجرائية للتعامل مع الازدواج القيمي الذي يستدعي قيماً لا متناهية من المعاني المحتملة «إن التحويل يقتضي قراءة النص الروائي بوصفه مساراً لسلسلة من العمليات التحويلية، مما يفرض قراءة كل مقطع انطلاقاً من الكلية التي يمثلها النص بالولوج إلى مستوى سابق على الشكل النهائي الذي يبدو عليه النص، أي إلى مستوى توليده بوصفه مجموعة من الإمكانيات اللامتناهية»¹⁵. نستنتج بناءً على هذا، خضوع مفهوم التناص مثل باقي مكونات النص للتحويل. فالنصوص التي تدخل إلى النص سواء بشكل مباشر كالاستشهادات أو بشكل غير مباشر كخطاب الغير، أو بعض بنيات الأجناس الأدبية الأخرى تعتبر نصوصاً لانهاية قابلة للتأويل اللامتناهي، غير أن إدراجها في تكوين الكلية النصية، بإخضاع التناص لعملية التحويل وارتباط هذه الأخيرة بالقصدية التي يسعى النص إلى تحقيقها، يوقف عملية التأويل عنه المعنى المنسجم، ليدخل في التحليل عنصر ثالث يتمثل في الإيديولوجيا باعتبارها عنصراً مساهماً في

إرساء عملية التحويل إلى نقطة محددة، لذلك نجد كريستيفا تحدد وظيفة التناص في الأدلوجم وتحدد نقطة اشتغال هذه الوظيفة في التحويل « فأدلوجم نص ما هو البؤرة التي تعمل من خلالها العقلية العارفة على تحويل ملفوظات إلى كل النص، كما تعمل على إدخال هذه الكلية في النص التاريخي والاجتماعي»¹⁶. يثير مفهوم التناص، على هذا الأساس، علاقة بالإيديولوجيا فهو عامل في افتتاح النص يستدعي عبر عملية التحويل تدخل النشاط الإيديولوجي، وذلك لإيقاف السيرورة الدلالية لتقديم خطاب مكتمل ومنسجم ضمن الكلية النصية.

التخييل وبنية التفاعل النصي

يعتقد بعض الدارسين أن القراءة لا تتجاوز البحث عن المعنى التلقائي الذي يمكن للقارئ العادي إدعاء العثور عليه فيما يعتقد البعض أنها تعمل على استخلاص المعاني الممكنة وهذا بعد التفسير والتأويل¹⁷. يؤكد روبرت شولز Scholes وروبرت كيلوج Kellogg في كتابهما المشترك "طبيعة السرد" أن أمر القراءة في الرواية، كغيرها من الأدب السردى يقوم التحدي فيه على الربط بين نثر تخيلي Fictional وواقع حقيقي Real يتنافى أساساً مع التخييل¹⁸، لذلك لا بد أن يتحول هذا القارئ إلى ناقد لاستخراج الاختيارات الممكنة أو المتاحة للإجابة عن سؤال العلاقة بين التخييل والواقع في الرواية. هذه العلاقة هي ما جعل الرواية نصاً ذا معنى، « فالواقع إذاً كتاب خالٍ من الرسوم التوضيحية، والرواية هي الواقع مضافاً إليه تلك الرسوم الموضحة»¹⁹.

كما أسلفنا تعتبر نظرية باختين من أهم الدراسات التي قاربت الخطاب الروائي، وقد أقام هذا الأخير تعريف الرواية على صرح نظريته الحوارية، فرأى أن الرواية كاللغة حوار لا ينقطع، فإذا كانت اللغة الحوارية يجمعها تعدد للأصوات كذلك هي الرواية تجمعها أصوات الشخصيات الناطقة بصوت الواقع وتجمعها نصوص بحكم انفتاحها على إمكانات الخطاب التداولية. اعتبر هذا الأخير « أن الحوارية تخترق كل أبعاد النص الروائي من أسلوب وبنية وعلاقة بين المؤلف وبطله»²⁰ وبهذا المفهوم الموسع للرواية ضمن مبدأ الحوارية، انفتحت على أجناس أدبية كالشعر والأقصوصة وأخرى غير أدبية كالدين والأعراف وغيرها، حتى أن المؤلف أصبح له صوت في الرواية، بل وقد يحتكر أصوات الرواية كلها ضمن صوته، وبانفتاحها -الرواية- على نظريات جمالية التلقي أصبح المؤلف يشرك القارئ داخل نصّه، وصار الخطاب الروائي عقداً موقعاً بين الكاتب والقارئ. فباختين قال بالمفارقة لكنه ردها إلى كون اللغة عالماً من الأدلة الإيديولوجية يتوفر على مرجع²¹ أي على ثقافة معرفية مادية، وتخص معنى علاقة الإنسان بزمان تاريخي في ضوء هذا التصور يبدو أن نزوع التحليل إلى مقارنة المعنى ضمن بنية الشكل المعزول، مارس باختين درسه فاتحاً النص على مرجعيته، محيلاً إياه على ما هو ثقافي سائد، مبرزاً بذلك قيمة المعنى من حيث هو نسق أدبي مميز.

في حين أن تودوروف عارض القول بأن الأدب يكتب من الحياة، والنقد يكتب من الكتب، مؤكداً على أن الأدب يكتب أيضاً من الكتب وأن النقد يكتب أيضاً من الحياة²². لان تأكيد هذه القاعدة

النظرية لمفهوم المرجعية باعتبارها حضوراً داخل النص، ومن حيث هي بهذا الحضور المتشكل فنياً قوة إحالية خارج نصية، يجعلنا نتساءل حول التوسّطات التقنية التي تسعّنا في تحليل النصوص الأدبية، وكشف علاقاتها بمرجعياتها دون أن يكون ذلك على حساب أدبيّتها.

مما لا شك فيه أن التأثير الذي يصاحب قراءة النص التخيلي بلغته الثرية القادرة على التشخيص لا يؤدي إلى تفاعل الواقع والمخيّل في ذهن القارئ فحسب، وإنما يجعل من القراءة مكملًا للعمل التخيلي « فالقارئ يسهم بدوره في تتمة النص، شأنه في ذلك شأن المؤلف المبدع»²³، وبهذا تظهر أهمية الدراسات المهمّة بنظرية التلقي، كونها نظرية تؤمّن ارتقاء القارئ عن طريق القراءة بمستواه المعرفي، فيناظر المؤلف في إضفاء الصورة المكتملة للمعنى إنه القارئ القادر على التجوال في ثنايا النص التخيلي، بكفاية غير عادية، تمكنه من أن يلمح الدلالات التي تومئ إليها علامات العمل الروائي. ويؤكد فولفانغ إيزر، أحد أقطاب مدرسة كونستونس الألمانية، أنّ مثل هذا القارئ لا يعدّو أن يكون ضرباً من الافتراض، فهو قارئ مثالي.. وهو الكاتب الضمني، الذي يتميز عن غيره بالقدرة على التخيل، وهي قدرة ضرورية للاستمرار في القراءة التي لا تختلف من حيث الغاية والهدف عن الإبداع، فخيال الكاتب مرسل، وخيال القارئ الضمني متلقٍ، وهذا هو الذي يمكنه من ملء الفجوات، وسدّ الفراغات التي يودعها خيال المبدع في النص»²⁴، بمعنى أن القراءة موجهة بين ثقافتين ثقافة المؤلف وثقافة القراءة لكن هذه المعرفة تنطلق من النص المقروء

من حيث هو بنى سوسيو - نصية، لتتفاعل مع مخزون وعي القارئ من معارف تتقاطع مع دلالات النص، ذلك أن « المواجهة أثناء عملية القراءة ليست كامنة، وإنما هي الوجه الجلي الذي يعوّل عليه في تفسير النص واستيعابه، ونتيجة ذلك التفاعل النصي تتعدد الآراء، وتتناوب المعاني»²⁵.

أهم دراسة بنيوية تناولت التخيل هي دراسة تودوروف ضمن كتابه مدخل إلى الأدب العجائبي "Introduction à la littérature fantastique" « أين يحتل فوق الطبيعي Surnaturel مكانة لا غنى عنها ضمن الرواية كونه يثير ويرعب أو على الأقل يعلق في ذهن القارئ»²⁶ مما يدعو القارئ إلى التردد في قبول ما يحدث، محاولة منه التعايش مع الشخصيات المتخيلة فإما أن يشاطر القارئ هذه الشخصيات واقعها وإما أن يفشل في الولج إلى شعرية المحكي. انطلق تودوروف ضمن مجال الشعرية من البحث في الخصائص الأدبية للمحكي، واستعان بالتخيل كشكل من أشكال الكتابة، ومكون من مكونات شعرية الخطاب، توجد مجموعة من المحاولات التي سبقت دراسة تودوروف هذه، مثل دراسة فلاديمير بروب في مورفولوجيا الخرافة، دراسة كلود ليفي شتراوس في مجال الأنثروبولوجية ولوفكرافت Lovecraft في الأدب التخيلي ضمن الثقافة الأنجلوسكسونية، ودراسة سكاربروس Scarbroch - فوق الطبيعي - في التخيل الانجليزي المعاصر.

ثاني أهم دراسة بنيوية لعنصر التخيل ضمن الخطاب هي دراسة جيرار جنيت، فبعد أن أكد هذا الأخير على نزعتة الشعرية، الهادفة إلى

تحيل إلى انشغال بتطوير الجنس الروائي فحسب بل تبتغي في الأساس خلق جو مناسب للتفاعل النصي.

المدار

يتطلع إيكو إلى بلورة مشروع سيميائي لقراءة النص السردي، مصححاً النظريات التي سبقته في اقتراح برامج محددة للقراءة، فالرواية «عمل متعدد الدلالات، أو بتعبير Umberto Eco عمل مفتوح لأي نمط نصي محتمل لتأويل شتى، مختلفة باختلاف المواقف التداولية»³¹. يعتقد إيكو أن النظريات السابقة اهتمت بالمستويات النصية وأقصت بنية التأويل باعتبار أن النص الأدبي نص دينامي، يتحرك في اتجاه القارئ، ويخلص إيكو إلى النتيجة التالية: «في الواقع لا يسع مفهوم المستوى النصي سوى أن يكون مفهوما نظريا، أو ترسيمة ما وراء نصية *meta textuelle*، وبمقدور هذا المفهوم أن يتم فصل بحسب المشروع الخطابي الذي يحتكم إليه ويؤيده»³².

يشكل نموذج إيكو مشروعاً متكاملًا لمقاربة دلالة النص السردي، لأنه يضع في اعتباره البنيات النصية والتداولية، ويبحث في سنان اشتغال كل مستوى نصي، وفي الوقت نفسه يسعى إلى كشف علاقات التفاعل والتجاذب بين مستويات النص المحاثية والتداولية. يشتمل هذا المشروع السيميائي ميزة مهمة، تكمن في بناء نموذج نظري للقراءة، يقارب دلالة النص السردي في علاقتها بالبنوية السردية والتلقي السيميائية، إذا كان اهتمام بارث ينصب على مضاعفة انفتاح النص وتحريره من كل بنية أو منطق أو نظام فإن ما يقترحه مشروع إيكو هو تحديد شكل الانفتاح وبنيته³³، فالانفتاح

البحث في مقومات الخطاب ورصد الخصوصيات الجمالية والبلاغية لمكوناته الشعرية يعتمد في آخر كتبه طروس *Métalepses* سنة 2004 على التخيل بوصفه كتابة تتحرر من قيود النص إلى التناص²⁷، كونه يطلق سراح النص ليرتع من نسج نصوص أخرى، وذلك باستدعائه الخوارق تارة، واستحضاره الرمز تارة أخرى «ليتّم استلهم مرجعيات حكاية فنتاستيكية سابقة على وجود النص ومستعارة من انساق تخيلية متعددة، تاريخية، أسطورية، ميتافيزيقية»²⁸. إذ تتحدد علاقات التفاعل بين النص الأصلي والبنيات النصية الأخرى ضمن شبكة من العلاقات الجديدة لتؤسس لقيام خطاب جديد يثري فضاء النص «فالنص السردي لا ينهض في معماريته *Architecture* على بنية حكاية واحدة بل يتداخل فيه ما هو أسطوري وما هو واقعي، وما هو معيش مدنس بما هو ورائي مقدّس، ولا تخلو العلاقة بين هذه الأنساق التخيلية من الالتباس والتوتر بسبب التفاعل الذي يحصل بين بنياتها إلى درجة تتلاشى فيها الحدود بينها»²⁹. كذلك فالنص الروائي في حد ذاته، بفضل ما أصبح يقوم عليه من إستراتيجية التخيل فهو يستحضر بنيات موازية له من نصوص أخرى من التراث والتاريخ والشعر والقرآن، والسرد لم يعد فضاءً لتتبع مراحل القصة بل أضحى يتطلب عملاً جاداً وتفاعلياً لكي تتلاءم عناصره المتناقضة «إنّ التخيل هو خرق سافر للقواعد السردية وانفتاح على المقروئية والتداولية»³⁰. فقد أضحى - التخيل - نوعاً من أنواع التلاعب الملحوظ بأنظمة السرد، أو التنويع الكتابي كميزة تفتح الرواية على تجربة جديدة لا

الدلالي لا يعادل الاستعمال الحر، ولكنه يمثل إستراتيجية نصية مشروطة بوسائط التعاون النصي، المتمثلة في الانتقاعات وفرضيات الخطاطات وغيرها من العمليات الدلالية والتداولية التي تحدد وترسم الأفق النظري للمسار التأويلي للقارئ النموذجي. اذ يدعوا التأويليون إلى أن «كل عمل أدبي حينما يكون له شكل مكتمل ومغلق في كمال هيئته المضبوطة بدقة، فإنه عمل مفتوح لأنه على الأقل قابل للتفسير بطرق مختلفة دون أن يؤثر ذلك على تفرد غير القابل للاختزال»³⁴ فالتأويل العلاماتي للعمل الأدبي يسمح بإدخال القارئ في متاهة لانتهائية القراءة، ناقدا بيرس حينما يذهب إلى لا متناهية التأويل بقوله ان العلامة شيء تفيد معرفته شيء آخر³⁵ كما أنه يرى أن التمثيل العلاماتي لا يمثل سوى نفسه باعتباره يدرك خارج أي سياق، ولا يجرّد هذا السياق من معناه وإنما يتم استبداله بمعنى أكثر شفافية³⁶، لذلك فالأمر يتعلق بالحد من لا نهائية التأويل للعلامة.

أثارت مسألة التأويل السيميائي معارضة الكثيرين، إذ طرحوا أسئلة حول المعايير التي يستند إليها المؤول، وهل هناك تأويل صحيح وآخر خاطئ؟، وهل كل قراءة تمنح تأويلاً مغايراً، والأهم إلى أين تنتهي هذه السيرة التأويلية؟، فما يطلق العنان للدلالة هو نفسه يجعل توقفها أمراً مستحيلاً، أثارت هذه اللامتناهية حفيظة ايكو، مصرحاً «لقد ذهب بيرس بعيداً»³⁷ ورفض التأويل المفتوح إلى ما لا نهاية، يسعى إيكو إلى إيجاد حل توفيقي للتخلص من لامتناهية التأويل بقوله «أن على أية مجموعة من مؤولي نص ما أن تتفق (بشكل مؤقت وعرضي) على نوعية

الموضوع السيميوزيس الملقى للتأويل»³⁸، ويوضح بيرس مفهوم السيميوزيس على أنه السيرة التي يعمل بموجبها شيء ما كعلامة وتقوم هذه السيرة بتحريك ثلاثة عناصر: ما يعمل كعلامة وما تحيل عليه، والأثر الحاصل على المؤول³⁹، وهو من التقنيات التي وضعت للتأويل.

انطلاقاً من اعتقاده بان نظرية غريماس و المربع السيميائي تحديدا محاولة فاشلة في وصف نشوء البنية السردية من العملية الدلالية ذاتها، يتطلع إيكو إلى بلورة مشروع سيميائي لقراءة النص السردية، مصححاً النظريات التي سبقته في اقتراح برامج محددة للقراءة، فالرواية «عمل متعدد الدلالات، أو بتعبير Umberto Eco عمل مفتوح لأي نمط نصي متحمل لتأويل شتى مختلفة باختلاف المواقف التداولية»⁴⁰، يعتقد إيكو أن النظريات السابقة اهتمت بالمستويات النصية وأقصت بنية التأويل باعتبار أن النص الأدبي نص دينامي يتحرك في اتجاه القارئ، ويخلص إيكو إلى النتيجة التالية: «في الواقع لا يسع مفهوم المستوى النصي أن يكون سوى مفهوم نظري، أو ترسيمة ما وراء نصية *meta textuelle*، وبمقدور هذا المفهوم أن يتم فصل بحسب المشروع الخطابي الذي يحتكم إليه ويؤيده»⁴¹.

تعرف السيميوزيس في معجم غريماس وكورتيس، كمرادف للوظيفة السيميائية بمعنى العملية التي تشيد العلاقة الافتراضية المتبادلة بين شكل التعبير وشكل المحتوى (باصطلاحات يلمسلف) أو بين الدال والمدلول (باصطلاحات سوسير)⁴². والذي يحيلنا على سيرة العلامة

(Procès du signe) فهو يتصور المحور الذي يتوسط شبكة العلاقات بين ثلاثة عناصر (في فلسفة بيرس التثلينية) وهي الممثل (Representamers)، والموضوع (Objet) الذي تحيل عليه والمؤول (Interpretant)⁴³. واختلف النقاد في ترجمة مصطلح Sémiosis، ولم يجدوا سبيلا إليه غير تعريفه بـ (السيموزة) التي تشيع عند معظمهم أو السيموزيس عند سعيد علوش ورشيد بن مالك⁴⁴.

تؤكد سيميائية بيرس أن وجود التجربة الإنسانية، ووجود العلامة المصاحبة لها، مبنيان على أساس الوساطة التأويلية فكي تتحقق التجربة أي لكي تمر من وجود الإمكان الذي تمثله الأولانية إلى الوجود المتحقق في مستوى الثنائيات، ينبغي الرجوع إلى مقولة التوسط أو الثالثية، لإجراء نوع من التخصيص والتأويل داخلها، وهو نفس الإجراء الذي يستدعيه تحقق العلامة لاتسام عناصرها بالمرونة والجزئية والتعدد.

يعني بيرس بمفهوم السيموزيس كل سيورة منتجة للدلالات وهي تقود على أساس التصور الثلاثي للعلامة، فهي « تقتضي تشارك ثلاث ذوات من شكل علامة وموضوعها ومؤولها، دون أن يكون هذا التأثير الثلاثي للعلاقات قابلاً للاختزال بأي شكل كان، إلى عمليات ما بين أزواج⁴⁵». يشغل السيموزيس في تصور بيرس وفق علاقة غير مباشرة، يلعب التأويل دور الوسيط الذي بدونه لا يمكن تصور إحالة أو تدليل (فالعلامة شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيء ما بأي صفة وبأية طريقة انه يتوجه إلى شخص ما. أي انه يخلق في ذهنه علامة موازية أو لربما علامة أكثر تطوراً اسمي هذه العلامة

التي يخلقها مؤولا للعلامة الأولى، وتحل هذه العلامة محل شيء ما، انه موضوعها إنها تحل محله لا من خلال كل علاقاته، ولكن بالإحالة على نوع من الأفكار التي أسميتها عماد الماثول⁴⁶،. يختزل هذا التعريف الذي يقدمه بيرس للعلامة العناصر المكونة لها موضحاً في ذات الوقت العلاقة غير المباشرة التي تنشئ بينها والتي تؤدي إلى إنتاج الدلالة. يمكن فهمها كالتالي . - الماثول: يتميز بكونه الأداة التي تمثل لموضوع معين بحيث يكون حضورها بمثابة استحضار له وبكونه لا يحيل على موضوعه إلا من خلال وجود مؤول يجعل العلاقة بين الأداة والموضوع مستساغة وذلك بخلقه بصورة ذهنية أو فكر يشكل الشرط الضروري لوجود العلامة وتداولها

- الموضوع: يعني الشيء الذي يعوضه الماثول ويمثله. يحدده بيرس (المعرفة التي تقتضيها العلامة لكي تتمكن من إيصال معلومات إضافية تخص هذا الموضوع)⁴⁷.

- المؤول: هو العنصر الذي يدل على اعتبارية العلامة وعلى العلاقة غير المباشرة بين الماثول وموضوعه فكل موضوع لا يحمل دلالة في نفسه ولكن يكتسبها بتداوله في سياقات متعددة يعتبر التأويل إذا انتقاء يتم داخل الحقل الثقافي العام بكل ارغاماته، ليحدد حقلاً خاصاً مرتبطاً بفضاء وزمان خاصين لا ينفلتان من ارغامات الحقل العام المحيط بهما.

عنصر التوسط داخل السيموزيس هو المؤول، وذلك ما عبر عنه ايكو حين ارتأى بأن نظرية المؤول من منظور سيميائية بيرس تسمح لنا بالتعرف على المدلولات، باعتبارها وحدات ثقافية

من خلال أشكال دالة⁴⁸، بل انه يذهب ابعد من ذلك حين يؤكد بان (فكرة المؤول تسمح بتحويل السيميائية إلى علم صارم للظواهر الثقافية بتحريرها من الميتافيزيقا⁴⁹، ما يعني إلغاءه للمرجع أو على الأقل اعتباره ظاهرة ثقافية، يلاحظ ايكو بان سيميائية بيرس لا تعتمد الغياب الكلي (فرغم أن العلامة لا تظهر الشيء بعينه، إلا أن مسار السيميوزيس يؤدي إلى ولادة مفهوم مشترك اجتماعيا، لذلك فان المدلول المتعالي لا يوجد في أصل المسار ولكن ينبغي أن يفترض كهدف ممكن ومؤقت لكل مسار⁵⁰، لذلك فان بيرس بتأكيده على ربطه المؤول النهائي بالعادة -في نظر ايكو- يؤكد في ذات الوقت على اجتماعية التأويل وعلى اجتماعية العلامة ككل. الأمر الذي يصبح فيه كلاهما أداة معبرة عن تناقضات الواقع وتفاعلاته، وبذلك (يبدو الاجتماعي كمؤسس نهائي للواقع وكمؤسس نهائي في ذات الوقت للحقيقة)⁵¹، نظرا لما يقع بين الواقع والحقيقة من تداخلات تظهر الواقع كحقيقة ممكنة.

يقارن إيكو بين نظرية السيميوزيس البورسية وبين المتاهة الهرمية، فيفيد بأن توقف المسار التأويلي عند نقطة يصبح فيها التأويل متاهيا « لا يعني بالنسبة لبورس بأن النص يجب أن يخضع لقراءة وحيدة مميزة، لأن المبدأ البورسي الذي يقوم على أساس غياب الشيء الذي تحيل عليه العلامة، هو أيضا، من وجهة النظر النصية مبدأ للتعدد التأويلي⁵²، الأمر الذي يدخل العلامة في مسار من التأويلات اللامتناهية التي تفتح المجال أمام الاختيارات والتوجهات لإيقاف المسار واستقراره عند نقطة متناهية، لذلك فإننا عندما نؤول نصا

ما لا نقدّم في واقع الأمر سوى نموذج تأويلي من بين نماذج أخرى « نحصل على هذا النموذج عبر وساطة المدار الذي لا يصلح فقط لتنظيم السيميوزيس وباختزالها، ولكن أيضا لتعيين وجهة التحيينات⁵³.

إن القارئ أثناء تلقيه للنص السردى يحاول أولا فهم الحدث في القصة ويتساءل بطريقة أو بأخرى عن مدار الحديث في النص، ويعرف إيكو المدار بأنه « أداة من أدوات ما وراء النص "Méta textuel" يسع النص أن يفترضها مسبقاً⁵⁴، ومن ثم فالمدار هو المعنى السابق عن النص، فعلى القارئ أن يجتهد في الوقوف على هذه البؤرة الدلالية للنص، كما « يمكن أن يدرك على أنه الاستخلاص الأولي الذي يحاول القارئ القيام به على قاعدة البنى الخطابية⁵⁵.

يتعلق الأمر إذن بأداة إجرائية تعين القارئ على تحيين قراءة معينة دون أخرى، يتم ترهين البنى الخطابية من خلال مفهوم المدار ويعرفه إيكو: « المدار أداة ما وراء نصية، وترسيمة يقترحها القارئ، فتكون الحكاية جزءاً من مضمون النص⁵⁶. حيث أن النص يوحى بتأويلات لامحدودة، ينبغي إذن تحديد الشروط الملائمة لبناء المدار المناسب الذي تفصح عنه بنية النص، لكن السؤال المطروح هو، كيف يختار القارئ من هذه التأويلات المتعددة المحور الدلالي الملائم للنص؟

يعتقد إيكو أن المدار ينهض بهذه الوظيفة التداولية، لأنه يمكن القارئ من ضبط الترهينات الدلالية، وتحديد ما هو ملائم منها لإستراتيجية النص، لذلك يرى أن مفهوم المدار يدخل في باب القياس الاحتمالي « تعيين المدار يعني التقدم

يتعامل بدوره مع النص انطلاقاً من ثقافته الخاصة، والذي يمكن أن يكون مداراً مغايراً لما يحاول المؤلف الإيحاء به، كما أن انفتاح ألفاظ النص وتركيباته على سياقات متعددة يمكنه أن يؤدي إلى تعدد القراءات المفترضة.

يمكن القول بناءً على هذا الأساس بأن المدار أداة للانتقاء السياقي، بالإضافة إلى كونه أداة للانتقاء القيمي، بما أن كل قراءة تهدف إلى إرساء قيم معينة، لذلك ينبغي ألا يخرج تكوين المدار باعتباره أداة توقف السيرورة التأويلية لتقديم قراءة مفترضة، يتلخص إجراء المدار في تقديم فرضيات حول عوالم ممكنة.

الهوامش:

1 - نور الدين بنخود، معجم السرديات، إشراف: محمد القاضي، ص 454.

2 - المصدر نفسه، ص 454.

3 - Voir, T. Todorov: Qu'est-ce-que le structuralisme?, 2, poétique, éd. Seuil, paris, 1973, pp29- 30.

4 - Voir, M. Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, éd. Gallimard, 1978, p 97- 98.

5 - Voir, Bakhtine, Esthétique et théorie du roman., p 149- 150.

" انبثق إذن مفهوم التعدد اللغوي من الحاجة إلى استبدال إيديولوجيا البحث عن الوحدة بإيديولوجيا البحث عن التنوع، لأجل الإلمام بهذه الجوانب والوقوف على تفاعلاتها على مستوى الخطاب الروائي، إنه يبقى اشتراك كافة الخطابات المعبرة من خلال اللغة في عملية الصوغ النقائي".

6 - Voir, Bakhtine, Esthétique et théorie du roman., p 121.

7- Idem, p 177.

8- رابح بوحوش الخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات

وعلم النص، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ملتقى علم النص،

العدد 12، ديسمبر 1997، ص 181.

9 - جان كلود كوكي، السيميائية، مدرسة باريس، ترجمة رشيد بن مالك،

دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 164.

10 - محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، (نحو منهجية شمولية)، المركز

الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996،

ص 37.

بفرضية حول انتظام معين يعتري المسلك النصي، على أن هذا النموذج من الانتظام هو ما يضع كذلك - على حد اعتقادنا - حدوداً لتماسك النص وشروطاً لقيامه على حد سواء»⁵⁷.

لذلك تعتبر الفرضية أهم إجراء للمدار، ففي ضوئها يقوم القارئ بتحيين البنيات الخطابية لموضوع قراءته بالشكل الذي يضمن الانسجام الداخلي له، « يعني تحديد المدار تقديم فرضية حول الانتظام النصي، يضع هذا النمط الانتظامي حدوده وشروط الانسجام داخل النص»⁵⁸، إذا كان تقديم الفرضية يعني عملاً قليباً تقوم به الذات القارئة، فإنها لا تفعل ذلك بعيداً عن النص الذي يوفر بعض الإشارات المساعدة على تكوين المدار، وهي « إشارات غالباً ما تكون واضحة مثل العنوان بالتحديد، أو عبارة صريحة تكشف عما يريد النص الاهتمام به، غير أن المدار يكون في بعض الأحيان غير ظاهر، وينبغي البحث عنه فالنص، يكون في هذه الحالة، من خلال التكرار المؤكد لمجموعة من الآثار المعنوية أو لمجموعة من الكلمات المفاتيح التي يمكن لها أن تتواجد أيضاً ببعض النقاط الإستراتيجية من النص عوض توزيعها بشكل مكثف»⁵⁹.

يشغل المدار باعتباره أداة لانتقاء المضامين، وكموجه للقراءة، يعمل المؤلف بالفعل على إخضاع عناصر نصه لإستراتيجية معينة يحاول من خلالها إيصال رؤيته الخاصة في فهم المعاني وإدراك العالم، هذه الرؤية التي تحمل معها ثقافته الشخصية بكل توجهاتها العرقية والدينية والسياسية، غير أن هذه الرؤية تصطدم في مسيرتها برؤية أخرى تخص القارئ الذي

- 27 - Gérard Genette: Palimpsestes, éd. Seuil, 1982, p 7.
- 28 - Gérard Genette, Métalepses (de la figure à la fiction).
- ينظر مُجَّد بوعزة، هيرمينوطيقا المحكي - النسق والكاوس في الرواية العربية، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 143.
- 29 - G. Genette, Introduction à l'architecture, in Théorie des genres, p 89.
- ينظر: مُجَّد بوعزة، المرجع نفسه، ص 143.
- 30 - عبد الفتاح كليطو، الأدب والغربة، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1983، ص 36.
- 31 - بيرنار فاليط، النص الروائي، تر: رشيد بن حدو، منشورات سيليكس إخوان، ط 1، 1999، ص 36.
- 32 - أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، تر: أنطوان أبو زيد، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1996، ص 86.
- 33 - خوسيه ماري بوثو يلوايفانكوس، نظرية اللغة والأدب، تر: حامد أبو حامد، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 136.
- 34 - جان إيف تادييه، النقد الأدبي في القرن العشرين، تر: قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص 302.
- 35 - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بن كراد، المغرب، 1999، ص 120.
- 36 - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ص 119.
- 37 - المرجع نفسه، ص 126.
- 38 - نفسه، ص 132.
- 39 - ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، د.ط، د.ت، ص 25.
- 40 - بيرنار فاليط، النص الروائي، تر: رشيد بن حدو، منشورات سيليكس إخوان، ط 1، 1999، ص 36.
- 41 - أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، تر: أنطوان أبو زيد، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1996، ص 86.
- 42 - Voir, A.J. Greimas, Joseph courtes: Dictionnaire raisonné de la théorie du langage Sémiotique dictionnaire, p 339 (Sémiosis).
- 43 - Voir, Rey-Debove (Josette), Lexique sémiotique, PUF, paris, 1979, p 130.
- 44 - سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، 1984، ص 72.
- رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، 2000، ص 178-194.
- 45 - Voir, C.S. Pierce, Ecrits sur le signe, éd. Seuil, 1978, p 133.
- 46 - Voir, C.S. Pierce, Ecrits sur le signe, Op cit, p12.
- 47 - Ibid, p12.

- 11 - حوار مع جوليا كريستيفا، ضمن فؤاد أبو منصور: النقد البنوي الحديث بين لبنان وأوروبا، دار الجليل، بيروت، ط1، 1985، ص 344.
- 12 - حوار مع جوليا كريستيفا، ضمن فؤاد أبو منصور: النقد البنوي الحديث بين لبنان وأوروبا، ص 348.
- ينظر: جوليا كريستيفا: علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ص 7.
- 13 - Voir, J. Kristeva, Sémiotike, recherche pour une sémanalyse, éd. Seuil, 1969, p 149.
- «فأمام هذه الحواريّة يبدأ مفهوم ذات الكتابة في التوقف ليفسح المجال أمام مفهوم ازدواج قيم للكتابة».
- 14 - Voir, J. Kristeva, Sémiotike, p 153.
- 15 - Voir, J. Kristeva, Le texte du roman, éd. Mouton publishers, 1970, p 18.
- 16 - Voir, J. Kristeva, Le texte du roman, op.cit, p 12.
- 17 - وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوثيل عزيز، دار المأمون، بغداد، ط1، 1987، ص 151.
- 18 - نبيلة إبراهيم، القارئ في النص، فصول، مج 5، ع1، تشرين الثاني / نوفمبر 1984، القاهرة، مصر، ص 101.
- 19 - وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ص 102.
- 20 - المرجع نفسه، ص 204.
- 21 - ينظر، ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، تر: مُجَّد البكري ومعنى العيد، دار توبقال، المغرب، 1986، ص 17، 18، 19.
- Voir, Mikael Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, Ed. Gallimard, paris, 1978, Ch. VII.
- 22 - راجع ترفيطان تودوروف، في نقد النقد، ت: سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986، ص 151. قراءة الرواية كسائر الفنون الأدبية والسردية قديمة أم جديدة، يضعنا وجها لوجه أمام حقيقة « أنّ ما نقراه واقعي ملموس على النحو الذي نجده في الفنون الأخرى من أدبية وتشكيلية (plastic) تلك الفنون التي تعبر عنها كلمة تمثيل أو تشخيص represent بأوسع ما تعنيه الكلمة من معنى²² لكن لا بد من التأكيد هاهنا على أن الرواية التي تتمتع بهذه القدرة على تشخيص الواقع، وتمثيله شأنها شأن الفنون التشكيلية (رسم، نحت) تنزع أحيانا نحو عدم المطابقة بين المتخيل والواقع، بمعنى أن الرواية لا يشترط فيها أن تطابق الواقع من حيث هو متخيل
- 23 - نبيلة إبراهيم، القارئ في النص، (فصول)، ص 101.
- 24 - المرجع نفسه، ص 103.
- 25 - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص، السياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 152.
- 26 - ترفيطان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط، ط1، 1994، ص 76.

-
- 48 - Voir, U.eco la structure absente, éd. Mercure, 1972, p.68.
- 49 - Voir, U.eco la structure absente, éd. Mercure, p 66.
- 50 - Voir, U.eco, Les limites de l'interprétation, éd. Grasset, 1992, p382.
- 51- E. Veron, la sémiosis et son monde .in langages 58 p7. Voir éliséo véron- sémiosis de l'idéologie et du pouvoir in communication n 28 -1978.p 33.
- 52 - Voir, U. Eco, Les limites de l'interprétation, p 382.
- 53 - Voir, U. Eco, Lector in Faleula, éd. Figures/ Grasset, 1985, p 115.
- 54 - أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاقد التأويلي في النصوص الحكائية)، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص 118.
- 55 - المرجع نفسه، ص 134.
- 56 - نفسه، ص 113.
- 57- Voir, U. Eco, Lector in Faleula, Op cit, pp 115- 116.
- 58 - Voir, U. Eco, Lector in Faleula, Op cit, p 117.
- 59 - Ibid, p 118.